

التكامل المعرفي في فلسفة الذات الإنسانية عند محمد إقبال: مقارنة تحليلية

Cognitive Integration in Muhammad Iqbal's Philosophy of the Human Self: An Analytical Approach¹ بوعلي مبارك¹ جامعة الشهيد الشيخ العربي البسي - تبسة (الجزائر)، mebarek.bouali@univ-tebessa.dz

تاريخ الاستلام: 2026/12/29 تاريخ القبول: 2026/05/17 تاريخ النشر: 2026/06/01

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تحليل مظاهر التكامل المعرفي في فلسفة الذات الإنسانية عند محمد إقبال، بوصفه أحد أبرز مفكري الفكر الإسلامي الحديث، الذين انشغلوا بمشروع تجديد التفكير الديني، وتنطلق الدراسة من اعتبار أن سؤال الذات الإنسانية يشكّل محورا أساسا في فلسفة إقبال، وأن هذا المحور يقوم على رؤية تكاملية للمعرفة تتجاوز الثنائيات التقليدية بين العقل والوحي والتجربة.

وانطلاقا من ذلك، تطرح الدراسة الإشكالية الآتية:

فيم تتمثل مساهمات محمد إقبال في تجديد الفكر الإسلامي، ولا سيما في تصوره للذات الإنسانية بوصفها الأساس المعرفي الذي أقام عليه مشروعه الفلسفي؟

وتعتمد الدراسة مقارنة تحليلية تسعى إلى تفكيك البنية المفاهيمية لفلسفة الذات عند إقبال في ضوء التكامل المعرفي.

كلمات مفتاحية: التكامل المعرفي، فلسفة الذات، محمد إقبال، الذات الإنسانية، تجديد الفكر الديني.

Abstract:

This paper aims to analyze the manifestations of cognitive integration in Muhammad Iqbal's philosophy of the human self, considering him one of the most prominent thinkers of modern Islamic thought who were deeply engaged in the project of renewing religious thought. The study is based on the assumption that the question of the human self occupies a central place in Iqbal's philosophy, and that this focus is grounded in an integrative vision of knowledge that transcends traditional dichotomies between reason, revelation, and experience.

Accordingly, the study raises the following research problem:

To what extent do Muhammad Iqbal's contributions to the renewal of Islamic thought manifest, particularly in his conception of the human self as the epistemological foundation upon which he built his philosophical project?

The study adopts an analytical approach that seeks to deconstruct the conceptual structure of Iqbal's philosophy of the self in light of cognitive integration.

Keywords: Cognitive Integration, Philosophy of the Self, Muhammad Iqbal, Human Self, Renewal of Religious Thought.

*المؤلف المرسل: بوعلي مبارك

1. مقدمة:

إنَّ البحث في إشكالية تجديد الفكر الديني عند مفكري الإسلام يُعدّ، من جهة، بحثاً في مسارات تطور الفكر الإسلامي، ومن جهة أخرى، استقصاء لتحوّلات الفكر الفلسفي الإسلامي من خلال الاجتهادات المعرفية التي سعت إلى إعادة بناء الرؤية الدينية للإنسان والعالم، ويُعدّ محمد إقبال من أبرز المفكرين الذين انشغلوا بهذا المشروع، من خلال سعيه إلى تقديم رؤية فلسفية متجددة للذات الإنسانية ضمن أفق إسلامي معاصر.

وانطلاقاً من ذلك، تهدف هذه الدراسة إلى مقارنة مكانة هذه الاجتهادات في المنظومة الثقافية الإسلامية، ودورها في بناء وعي حضاري متماسك للشخصية الإسلامية، وذلك من خلال طرح الإشكالية الآتية

فيم يمكن تحديد مساهمات محمد إقبال في مجال تجديد الفكر الإسلامي، ولا سيما في تصوره للذات الإنسانية بوصفها الأساس المعرفي الذي أقام عليه مشروعه الفلسفي؟

ويقتضي تحليل هذه الإشكالية التطرّق إلى مسألتين أساسيتين، تتعلّق الأولى بمفهوم التكامل المعرفي باعتباره أداة منهجية تسهم في استجلاء المعارف وفهمها، وتتجاوز الفصل بين الحقول المعرفية المختلفة في أفق ينسجم مع منطق التكامل الحضاري، وهو المسعى الذي أدرك محمد إقبال أهميته ضمن فلسفته للذات الإنسانية، أمّا المسألة الثانية، فتتمثّل في تحليل تجليات هذا التكامل المعرفي في تصور إقبال للذات الإنسانية، بوصفها النواة المركزية لأي مشروع فكري يسعى إلى فهم الوجود الإنساني في كليته.

2. الإطار المفاهيمي والمنهجي للتكامل المعرفي:

1.2 مفهوم التكامل المعرفي:

المصطلح هو لفظ يعبر عن مفهوم، والمعرفة هي مجموعة من المفاهيم المترابطة في شكل منظومة فكرية، فلا يمكن لأمة أن تتقدم أو تزدهر حضارتها دون العناية التامة بالمصطلحات، التي تعد الإطار العام لفكر الأمة وروحها، لأنها تعكس سمات ثقافتها الحقيقية، كلما كانت مصطلحاتنا ومفاهيمنا أكثر دقة وضبطاً، كانت الأمة أو المجتمع أو الحضارة أكثر تطوراً وسيادة، والعكس صحيح، فالاستخدام الفضفاض وغير الواضح للمصطلحات يؤدي إلى الغموض وتراجع المعرفة، لذلك ليس من المستغرب أن يُستخدم المصطلح أحياناً بدلالات مختلفة وربما متناقضة، ولعل هذا هو السبب في محاولة تحديد مفهوم التكامل المعرفي بدقة.

يشير التكامل المعرفي إلى أن علماً معيناً يحتاج إلى التكامل مع علم آخر أو أكثر من أجل تطويره وتقدمه، أو إلى حاجة الإنسان في فهم علم معين إلى علوم أخرى تعينه على تحقيق هذا الفهم، في هذه الحالة، يكون المفهوم مفتوحاً ليضاف إليه أبعاد جديدة كلما اقتضت الحاجة (حسن، 2010، ص 32).

قضية التكامل المعرفي مسألة فكرية ومنهجية بالأساس (مصطفى، 2001، ص 8).

حيث تشكل العلوم والمعارف والثقافات المتنوعة رصيداً متكاملًا أوجده العقل البشري على مراحل تاريخية مختلفة، متفاعلة أحياناً، ومتفرقة أحياناً أخرى، وأصبح هذا الرصيد اليوم محاطاً بتحديات زخم المعطيات الحديثة في الزمان والمكان، مما يتطلب إعادة النظر فيه من زاوية الأسس والمنهج والنتائج، خاصة في ظل التطور السريع على

كل المستويات المعرفية، وفي ظل مفاهيم مهمة الأهداف والغايات، تتراوح بين الخصوصية والشمولية والعولمة من منظورات مختلفة.

يعد التكامل المعرفي من أهم الوسائل المساعدة على استجلاء المعارف وفهمها، وخلق نظم معرفية جديدة قادرة على استيعاب مختلف الرؤى، كما يسهم في حفر وتنقيب المفاهيم والعلوم المختلفة، وتفكيكها، ثم إعادة بعثها وغرسها في المعارف والثقافات الجديدة، ومن ثم تفعيلها وتداولها في سياقاتها الحيوية، ويتم ذلك من خلال التفاعل الحاصل بين المعرفة ومتطلبات العصر، فالتكامل المعرفي يمثل تكامل مصادر المعرفة (الوجود والوحي) وتكامل أدواتها (العقل والحس وأدوات أخرى) (حسن، 2010، ص34).

يمكن تلمس التكامل المعرفي في تمفصلات العلوم والمعارف، حيث تشكل نقاط الالتقاء والخيوط الرابطة بينها، والتقاطعات ذات الفاعلية المتبادلة، التي تسمح باختراق الحدود وتجاوز المسافات بين مختلف التخصصات والحقول المعرفية، وبذلك يصبح التكامل المعرفي تداخلا معرفيا واعيا، يمكن من التعايش البناء بين الخطابات المعرفية المختلفة، وهو بالضبط ما أدركه محمد إقبال في فلسفته للذات الإنسانية.

2.2 التكامل المعرفي بين الرؤية الغربية والرؤية الإسلامية للعالم:

اتجه النموذج الغربي منذ محاولاته الأولى في تأسيس المعرفة إلى فصلها عن الروح العميقة التي ميزت الفكر الشرقي القديم، سواء تمثلت تلك الروح في الأسطورة أو الديانات أو الحكم، مكتفيا بالتركيز على عمل الفكر ومركزية الوجود المادي، وقد تم ذلك من خلال عملية عقلنة الفكر والوجود، عبر تفسير سببي عالي للطبيعة، منذ بواكير الاجتهادات الفكرية للإجابة عن سؤال أصل الوجود في الفكر اليوناني القديم.

تعززت هذه النظرة في فلسفة العصر الحديث، سواء في المنزع الديكارتي العقلاني أو التجريبي مع بكون، حيث اعتبرت الذات مركزية في عملية المعرفة، ونادت بسيطرة الإنسان المطلقة على الطبيعة، وامتدت هذه النظرة إلى جميع ميادين الحياة الغربية، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمعرفية، مختزلة رؤية العالم فيما يراه الإنسان مصدر المعرفة، سواء في بعده العقلي أو الحسي، حتى حدود القرن التاسع عشر، ومع وقوع الغرب في أزمت كبيرة، منها الحرب العالمية الأولى والثانية والأزمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، أدرك كثير من مفكره أن العقل الغربي في أزمة، وأن حدائته تحتاج إلى مراجعة ونقد عميق لمنطلقاته المعرفية (هابرماس، 1995، ص8).

ظهرت في هذا السياق مفاهيم جديدة مثل ما بعد الحداثة، وما بعد الإيديولوجيا، وما بعد البنيوية، وما بعد الكولونيالية، وما بعد الفلسفة، وما بعد الدين، ويلاحظ المتأمل أن خطاب ما بعد الحداثة لا يعني تصفية حساب كامل مع ما سبق، بل يتعلق بظواهر ناشئة عن منعطفات كبرى في المجتمعات الأوروبية، حيث تُعد الثورة والنقد والتجاوز من خصائص العقل الحديث الذي حددته شروط تاريخية متضافرة (مستقيم، 2018، ص18).

وقد أشار إدغار موران إلى النزوع المعرفي الانفصالي في منظومة العلوم الغربية، موضحا أن مبدأ الانفصال كان ضروريا لتطور المعارف، انطلاقا من طفرة العلوم الحديثة التي تحولت سريعا إلى تخصصات متعددة، إلا أن انعزال هذه التخصصات عن بعضها أدى إلى فراغات معرفية كبيرة في ما بينها (موران، 2002، ص24).

فالمنظومة الغربية بهذا الشكل لا تعترف بالحقيقة الكلية المركبة المستمدة من الدين أو الميتافيزيقا أو الوجدان أو الأطر الإدراكية الشاملة، بل ركزت على العقل أو التجربة الحسية أو المنفعة أو القوة (المسيري، 2013، ص229). باستثناء فترة العصور الوسطى التي قدمت المعطى اللاهوتي في مقابل العلم وفي صراع معه، وقد تمثل ذلك في وصايا الكنيسة الصارمة وتعاليمها المزيفة، التي أسست لعلم جزئي غير متكامل، غير قادر على إنتاج منظومة معرفية متماسكة.

هذا الخلل انعكس مباشرة على أصالة المناهج والنماذج المعرفية، فظل العلم الغربي يتخبط في أزمت إبيستيمولوجية طالما لم يتجاوز مأزق الانفصال المعرفي والمنهجي الذي وقع فيه، ومن هذا المنطلق، يتضح أن الرؤية الغربية للعالم اختزلت الوجود في الإنسان أحيانا، وفي الجانب المادي أحيانا أخرى، وصحيح أن هذا الاختزال أدى إلى الإبداع في العلوم الطبيعية والإنسانية، لكنه كان على حساب الإنسان ذاته، مما أفرز اغترابا وتشويشا في الرؤية، وضبابية في الهدف والغاية، واللامعارية، والاختزالية، وتلاشي الحقيقة.

على النقيض من ذلك، اتجهت الثقافة الإسلامية منذ تأسيسها، من خلال القرآن الكريم، إلى استشعار الرقابة الإلهية، التي تقتضي الالتزام بالعمل الصالح، عبر العلاقة بين الإنسان وخالقه، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وعلاقته بالكون والحياة، وتهدف هذه الثقافة إلى إيجاد وعي علمي صحيح بحقيقة الإنسان والكون، من خلال رؤية كلية متكاملة.

خلال القرن العشرين، ظهر توجه جديد في الفكر الإسلامي من خلال دراسات عدد من المفكرين المسلمين الذين اطلعوا على الثقافة الغربية وعلومها المعاصرة، فتشكلت لديهم رؤية أو مشروعاً فكرياً يسعى إلى حل معضلات الأزمة الفكرية التي يعاني منها العالم الإسلامي، وانعكس ذلك على شخصية المسلم وعقله وفكره ونمط حياته، وقد استهدف هذا المشروع مواجهة تأثير الثقافة الغربية على الفكر الإسلامي ومنع استلابه، وتجاوز النمطية التقليدية للمنهجية الفكرية الإسلامية، عبر تقديم بديل معرفي ومنهجي قادر على حل المشكلات والتوافق مع متطلبات العصر. وفي هذا السياق، يمكن صياغة معادلة التكامل المعرفي وفق الرؤية الإسلامية على النحو التالي:

التكامل بين مصدري المعرفة: الوحي والوجود، أي دمج معطيات الحس والعقل (الإنسان) مع الوحي (القرآن) في وحدة معرفية متكاملة (طه جابر، 1995، ص1).

التكامل بين أدوات المعرفة: العقل والحس، إذ يُعد تكاملهما ضرورياً لتحصيل العلم والمعرفة المؤدية للإيمان والعمل معاً.

التكامل بين المصادر والأدوات، حيث يُوظف العقل لقراءة النصوص وفهمها وإصدار الأحكام وفق ضوابط الوحي. يرتبط هذا المفهوم بمقاربة القراءة المزدوجة: قراءة الوحي وقراءة الكون، أو قراءة الكتاب المسطور وقراءة الكتاب المنظور (مكرم، 1982، ص47).

وبشكل عملي، يعني التكامل المعرفي في سياق مشروع إسلامية المعرفة أو الإصلاح الفكري المعاصر امتلاك معرفة كافية بمبادئ الإسلام ومقاصده، وتوظيف منهجية مناسبة لتطبيق هذه المبادئ، وفهم العلوم المعاصرة

والتعامل معها، وبناء شخصية إسلامية معاصرة متماسكة وفاعلة، تمكّن الأمة من المساهمة المتميزة في الحضارة الإنسانية، مسترشدة بهداية الوحي الإلهي (عمار، 2017، ص 13).

من خلال الرؤية الإسلامية للتكامل المعرفي، يتضح أنه إطار منهجي يحقق التكامل بين مصادر المعرفة (الوحي والكون) وفق رؤية كلية إسلامية، مستهدفا بناء الفرد المسلم والمجتمع والحضارة الإسلامية، بما يعزز مسؤولية الإنسان أمام خالقه وأعماله، ويحقق خلافته على الأرض وعبادته وشكره لله.

وبناء على ذلك، سيخصص الجزء الثاني من هذه الورقة البحثية للحديث عن أحد أبرز المفكرين الإسلاميين المعاصرين الذين اهتموا بتطبيق منهجية التكامل المعرفي، وهو محمد إقبال، من خلال نظريته إلى الذات الإنسانية وتجليات التكامل المعرفي في فهمها، باعتبارها النواة الصلبة لأي مشروع فكري جاد لفهم الوجود الإنساني في كليته.

3. التكامل المعرفي في فلسفة الذات الإنسانية عند محمد إقبال:

1.3 السياق الفكري والفلسفي لمحمد إقبال:

ولد محمد إقبال سنة 1877م في مدينة سيالكوت بمقاطعة البنجاب الهندية، في أسرة من البراهمة النبلاء اعتنقت الإسلام في عصور متأخرة، كان والده متصوفا ومتدينا، ويعد المعلم الأول لمحمد إقبال (الشنقيطي، 2006، ص 9).

تلقى إقبال تعليمه الأول في دراسة القرآن الكريم، ثم التحق بكلية الحقوق في بلاهور، ولاحقا بالجامعات الغربية في بريطانيا وألمانيا، حيث درس القانون والفلسفة الغربية، واطلع على ما وصلت إليه العلوم في عصره، كما أتقن عدة لغات، وكان انتماؤه للثقافة الإسلامية قد أتاح له الاطلاع على مختلف مباحثها، وقد شارك إقبال في العديد من المحاضرات والمؤتمرات العلمية، كما كان نشطا سياسيا، وتوفي سنة 1938م (زكي، 2015، ص 55).

كتب محمد إقبال العديد من المؤلفات التي تعكس تطور فكره وتجربته المتعددة الأبعاد، من أبرزها: أسرار الذات، رسالة الشرق، تطور الفلسفة في إيران، وتجديد الفكر الديني في الإسلام، والذي جمع فيه خلاصة رؤيته حول تجديد الفكر الديني في الإسلام.

يكشف المتأمل في حياة محمد إقبال، والقارئ لنصوصه ومؤلفاته عن عمق فكري ناتج عن تجربة متعددة الأبعاد، وفلسفة مستمدة من مصادر متنوعة: القرآن الكريم، فلسفات الشرق القديم واليونان، الفلسفة الإسلامية، التصوف، الفكر المسيحي، الفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة، بالإضافة إلى التطورات العلمية في الغرب والنهضة الفكرية التي شهدتها، ومن هذا التمازج الثقافي والفكري تشكلت نظريته إلى الكون والحياة والإنسان، وانبى على أساسه مشروعه الفكري التجديدي القائم على ركائز نظرية ومنهجية متينة، يقول إقبال في هذا الصدد:

"لقد حاولت في هذه المحاضرات بناء الفلسفة الدينية الإسلامية بناء جديدا أخذ بعين الاعتبار المأثور من فلسفة الإسلام، إلى جانب ما جرى على المعرفة الإنسانية من تطور في نواحيها المختلفة" (زكي، 2015، ص 46).

ويلاحظ المتأمل في مشروع محمد إقبال الفكري أنه انطلق من دراسة وضعية الإنسان المعاصر، الذي يعاني القلق والاضطراب والشرود، وما حَزَّ في نفسه بشكل خاص هو وضعية الإنسان في المجتمع المسلم، الذي رغم توفر الإمكانيات الفكرية والمادية يعيش حالة من التراجع الحضاري، ويظل على هامش التاريخ، وكل ذلك دفع إقبال إلى

البحث عن "دواء" لهذا المرض الحضاري، عبر منهجية استثمار كل الثروات الفكرية والمادية، وتمكين الذات الإنسانية، التي يعتبرها مركزية في المشروع، من تغيير واقعها، ومن ثم النهوض الحضاري.

2.3 التكامل المعرفي وبناء مفهوم الذات (khudi):

ينطلق محمد إقبال في مشروعه التجديدي الفكري بصفة عامة، وفي فهمه للذات الإنسانية بصفة خاصة، من روح القرآن الكريم وفهم التنزيل الحكيم له، إلى جانب قراءة متأنية للفكر الغربي واستيعاب جوانبه، أي عبر عمليتي الدمج والتكامل، ويرى إقبال أن الفلسفة والثقافة الغربية قامت على اختزال الإنسان بكل أبعاده في الجانب المادي، ومنحته نظرة عقلانية صرفاً، متجاهلة البعد القيمي والروحي الذي يزوده به التنزيل الحكيم، ويؤكد ذلك بقوله:

"إن مثالية أوربا لم تكن أبداً من العوامل الحية المؤثرة في وجودها، ولهذا أنتجت ذاتاً ضالة أخذت تبحث عن نفسها بين ديمقراطيات لا تعرف التسامح، وكل همها استغلال الفقير لصالح الغني... صدقوني، إن أوربا اليوم هي أكبر عائق في سبيل الرقي الأخلاقي للإنسان، أما المسلم، فإن له هذه الآراء النهائية القائمة على أساس التنزيل الحكيم، الذي يتحدث إلى الناس من أعماق الحياة والوجود، وما تعنيه هذه الآراء من أمور خارجية في الظاهر يترك أثره في أعماق النفوس" (زكي، 2015، ص264).

اتجه إقبال إلى دراسة مفهوم الذات الإنسانية باعتباره الركيزة الأساسية لفلسفته، مقدماً رؤية جديدة للذات تقوم على إعادة الاعتبار لها، وتقويتها ومنحها الثقة الكاملة لتمكين من الخروج من حالة الاستسلام والضعف والاعتماد على الغير، وقد تناول العديد من العلماء والفلاسفة مفهوم الذات من منطلقات غربية اختزالية، مما جعل مهمة إقبال في صياغة مفهوم جديد للذات صعبة، ومن هنا اختار إقبال مصطلح خودي (Khudi) من اللغة الفارسية والأردية للتعبير عن رؤيته للذات، موضحاً:

"اخترت كلمة خودي: الذات بصعوبة بالغة وبجهد شديد... فمن الناحية الأدبية فيها العديد من النقائص، ومن الناحية الأخلاقية تُستعمل هذه الكلمة في كل من الأردية والفارسية بمعنى سيء عادة... وحسب اطلاعاتي، ليست هناك كلمة تعبر عما أريده سواء في الأردية أو الفارسية أحسن من كلمة خودي" (إقبال، 1956، ص65).

استعمل إقبال هذه اللفظة بمعنى جديد، مختلف عن معناها اللغوي الأصلي الذي يدل على الكبر والزهو والأنانية والاستبداد، مؤكداً:

"ينبغي أن يعلم القراء أن لفظ خودي لا يُستعمل في هذه المنظومة بمعنى الأثرة كما هو شائع في اللغة الأردية، وإنما بمعناها إحساس بالنفس أو تعيين الذات" (إقبال، 1956، ص11).

ويقصد بها عرفان النفس والذات، واكتشاف المواهب الخافية داخل الإنسان، والشعور بالغيرة والحمية وحفظ النفس من الفشل والهزيمة، إضافة إلى الجرأة والاعتراف بالحركة والتصرف والقوة، إذ كل ذلك يؤدي إلى معنى الحياة، فالذاتية تحيا من خلال خلق الآمال وإنشاء الأهداف، وتتدعم بحب ما يُؤمل وبالسعي لتحقيقه دون خوف أو رهبة، ويرى إقبال أن معرفة الذات شرط أساسي لتحويل الأفكار والتخيلات إلى عزائم، والعزائم إلى أعمال ومآثر مجيدة، كما يؤكد أن خودي تعني حفظ النفس من الهزيمة، وحفظ الإباء من الاستسلام، وحفظ الشكيمة من الانحطاط، وأن الحياة هي حركة وليست جموداً، وأن الحفاظ على خودي هو الحفاظ على الحياة نفسها، وأن

معرفة الذات ومعرفة الله مرتبطتان ارتباطا وثيقا، بحيث لا يمكن لأحدهما الاستغناء عن الآخر (أحمد ، 2021، ص 110).

من هذا المنطلق، يمثل مفهوم خودي القوة الفردية للذات، التي تمتلك الإمكانيات اللازمة لتجاوز العقبات والصعوبات، بهدف بناء وتعمير الكون وفق الرسالة التي خلق الإنسان من أجلها، وهي الاستخلاف في الأرض. ومن خلال نظريته للذات، أسس إقبال منهجية التكامل المعرفي لفهم الذات الإنسانية، مناهضا التجزئة والأحادية في النظر إليها، فالإنسان الكامل عنده هو الذي يمتلك إرادة قوية لا تُقهر وطموحا عظيما نحو المعالي، حتى تتحقق التآلف بين الدين والدنيا، القلب والعقل، الفكر والعمل، وحياة الإنسان الحقيقية عند إقبال هي حياة الكد والسعي والنمو، وطرده الخوف، وهي حياة الفعل المستندة إلى المعرفة بالذات وتطويرها، وهو ما سنوضحه في العناصر التالية التي تعطي معنى للذات كما فهمها محمد إقبال.

3.3 الذات الإنسانية والاستخلاف: البعد الأنثروبولوجي والأخلاقي:

استخلاف الإنسان في الأرض أمر إلهي، يقضي بالمحافظة عليها ورعايتها، وإعمارها، وإصلاح ما يطرأ عليها من فساد، وقد جاء القرآن الكريم لينير عقل الإنسان، ويوسع أفق روحه، ويهذب ذاته، ليتمكن من إدراك موقعه في هذا العالم، وحقه في الحياة، عبر منظومة معرفية إسلامية متكاملة تكشف حقيقة التكامل بين الإنسان والكون.

1- قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) «سورة البقرة: آية 30».

2- وقال تعالى: (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) «سورة ص: آية 26».

يتضح من هذه الآيات أن سيادة الإنسان على الكون ليست سيادة تملك واستبدادا، بل هي انتداب ورعاية، فالإنسان قائم بحفظ الأرض وتنميتها وفق تعليمات الله، وهذا ما يعكس مفهوم الخلافة في الإسلام، المرتبط بمبدأ الحقيقة ووحدة المعرفة القائمة على التوحيد.

مراحل الذات الإنسانية وفق إقبال: يرى محمد إقبال أن الذات الإنسانية تمر بثلاث مراحل أساسية لتحقيق استخلافها على الأرض:

- إنشاء المقاصد وتوليد الرغبات: المقاصد هي شروط أساسية لتقوية الذات، فهي مصدر الحركة والإقدام، وفق منهج غائي يهدف إلى تحقيق الاستخلاف وعمارة الأرض، باعتبارها الغاية العليا للخلق، فالذات الإنسانية مرتبطة بمعان قررها القرآن، وفرضتها الطبيعة البشرية، واقتضتها مكانة الإنسان في الوجود وظروفه المحيطة، فالإنسان فرد له قدرة على الحركة والعمل، ويتأثر بالنجاح والفشل، ويعد وجوده شرطا لتحقيق مقاصد الدين والأخلاق، ويؤكد إقبال أن الذات البشرية وحدة مستقلة وفريدة، لا تتجزأ وتُخلق الجماعة منها، فهي أساس الوجود، وقادرة على السعي نحو الكمال، الذي يقربها من الله (إقبال، 1975، ص 20).

- النضال المستمر والكفاح: لتحقيق الكمال، يحتاج الإنسان إلى الكفاح والسعي المستمر، باعتبار أن كل جيل حلقة من حلقات النضال نحو الهدف الأعلى، وعلى عكس النظام المعرفي الغربي القائم على الصراع والسيطرة على

الطبيعة، يؤكد النظام الإسلامي في فكر إقبال على فلسفة التسخير، حيث يكون الإنسان والعالم المادي علاقة تفاهم وتساند، لا صراعا وتنافسا.

ومن شروط هذه المرحلة:

الطاعة والانقياد لأوامر الله: ضبط النفس وجهادها لتحقيق الغاية، فالعبادة هنا تشمل أداء مهام الاستخلاف وإعمار الأرض، بالإضافة إلى العبادة الفردية.

الوصول إلى مقام المؤمن الكامل: تتصف الذات في هذه المرحلة بالإرادة الحرة والوعي بمكانتها التي حددها القرآن، فهي ليست ملكا لأحد سوى الله، وهذا ما يعزز حرية الإنسان واستقلاليتته للخلافة. يقول إقبال: "وجوده يعطي قيمة واعتبارا للكائنات، واعتداله هو محك الكائنات وعيارها" (إقبال، 1975، ص52).

- التغلب على الخوف من الموت واعتباره برزخا للخلود: الموت عند إقبال ليس نهاية، بل انتقال للارتباط بحقائق جديدة، وتحقيق نوع من الحرية الروحية، خاصة لدى النفس الكاملة التي اكتسبت أنماطا ثابتة من السلوك القبيح والمعرفي، الصعود المستمر نحو الكمال والتقرب من الذات الإلهية المطلقة (الكلاي، 1959، ص50).

- بناء جماعة من الذوات الكاملة: الهدف النهائي هو تكوين جماعة من الذوات المستمرة في السعي نحو الكمال، لتقود البشرية نحو السلام والنور والخير.

يقول إقبال: "مقام الإنسان الرباني تعلو على السموات... ماهية الثقافة هي احترام الإنسان" (إقبال، 1975، ص20).

- التكامل المعرفي في الاستخلاف: تقوم الرؤية المنهجية والمعرفية الإسلامية على تكامل الوحي والعقل وخبرات الكون: الوحي: يوضح طبيعة علاقة الإنسان بالله وغاية وجوده وحركة حياته ومصيره.

العقل: وسيلة لإدراك موقع الإنسان وغايته، وتمييز الوحي الصحيح عن الدجل والخرافة، واستنباط المعرفة بأسلوب منهجي.

الكون: خبرة الإنسان في التعامل مع الطبيعة واستثمار الموارد في خدمة الاستخلاف والعبادة.

من خلال هذا التكامل، يتمكن الإنسان من أداء دوره كخليفة لله في الأرض، وبناء شخصية متوازنة متصلة بروح المعرفة والخلق والعمل، متحررة من النظرة الاختزالية الغربية التي تركز على الجانب المادي فقط، ومتجهة نحو فهم شامل للذات والكون، بين عالم الغيب والشهادة (عبد الحميد، 1989، ص15).

بهذا تتجلى رؤية إقبال للذات الإنسانية والاستخلاف في إطار منهجي متكامل، يسعى إلى بعث الشخصية المسلمة القادرة على التفاعل الإيجابي مع الحياة، وتحقيق الكمال الفردي والجماعي في ضوء القرآن، والعقل، والخبرة العملية.

4.3 المعرفة وفهم الكون في بناء الذات الانسانية:

يرى محمد إقبال أن دور المعرفة لا يقتصر على جمع المعلومات أو السيطرة على الطبيعة، بل يمتد ليكون وسيلة لفهم الذات الإنسانية وبناء الحضارة، ويستند إقبال في ذلك إلى ما لاحظته من تقدم الحضارة الغربية، التي بلغت مكانة عالية من القوة المعرفية والمادية نتيجة اعتمادها على وسائل النظر في الكون، لكنها بالغت في التركيز على

الجانب المادي وحده، فشوهت الغاية من المعرفة وجعلتها غير قادرة على تحقيق المطالب الإنسانية يقول إقبال: "إن الإنسان العصري، وقد أغشاه نشاطه العقلي، كف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحية الكاملة، أي إلى حياة روحية تتغلغل في أعماق النفس... وقد استغرق في مظهر الحس الظاهر للعيان فأصبح مقطوع الصلة بأعماق وجوده" (زكي ، 2015، ص215).

يتضح من ذلك أن الرؤية الغربية أحادية الجانب، قائمة على العقل والحواس فقط، تنتج إنسانا ميكانيكيا أنانيا يقدر القوة المادية معيارا لتفوقه، متجاهلا البعد الأخلاقي والروحي الذي يعيد التوازن للإنسان ويحقق إنسانيته، لذلك يؤكد إقبال على ضرورة المزج بين مصادر المعرفة المختلفة لتحقيق الفهم الكامل للذات الإنسانية، بحيث يشمل البعد العقلي، الحسي، والروحي الأخلاقي.

مصادر المعرفة عند إقبال: تتمثل في:

الإدراك الحسي: يعتبر إقبال الحواس وسيلة أساسية للإدراك المعرفي، مستندا في ذلك إلى ما أكدته القرآن الكريم عن أهمية الملاحظة الطبيعية للوصول إلى الحقيقة، يقول إقبال: "المعرفة يجب أن تبدأ بالمشحوس، وقدرة العقل على تحصيل المشحوس وسلطانه عليه هو الذي ييسر له الانتقال من المشحوس إلى غير المشحوس" (إقبال، 1956، ص151).

الإدراك العقلي: يشكل العقل مصدرا رئيسيا للمعرفة، فهو وسيلة لفهم العالم وربط الحسي بالمعنوي، ويؤكد إقبال على استقلالية العقل وقدرته على التحكم في الحواس، حتى يصل إلى مستوى من الإدراك الكامل، يقول: "إن العقل كلما ازداد قوة اتجه إلى التحكم في الحسي، وقد ينتهي به الأمر إلى الارتقاء إلى حالة من الاستقلال التام، كما أنه ليس ثمة وجود على مستوى حسي أو جسدي بحث بمعنى أن تكون له مادة تعجز بجوهرها عن تفجير التركيب الخالق الذي نسميه الحياة والعقل" (إقبال، 1956، ص122).

الإدراك القلبي أو الحدس: يرى إقبال أن القلب يمثل وسيلة معرفية هامة للوصول إلى كشف الحقيقة، فهو يكمل الإدراك الحسي والعقلي ويتيح فهما أعمق للذات والكون، يقول "لكي يكفل إدراك الحقيقة إدراكا كاملا ينبغي أن يكمل الإدراك الحسي بإدراك آخر هو ما يصفه القرآن بإدراك الفؤاد أو القلب" (إقبال، 1956، ص134).

من هذا المنطلق، تتضح رؤية إقبال المعرفية التي توازن بين الحواس والعقل والقلب، بما يتوافق مع التوجيه القرآني، وتختلف عن النظريات الفلسفية الأحادية الجانب، التي تركز على حاسة واحدة أو على العقل فقط، وهذا ما يميز فكر إقبال المعرفي ويجعله متكاملًا، إذ يؤكد على أن تحقيق المعرفة والذاتية الإنسانية يتطلب التفاعل بين هذه المصادر الثلاثة، مع إعطاء الحدس أو البصيرة أهمية مركزية في إدراك الحقيقة، بما يتوافق مع المنظور الصوفي في نظرية المعرفة، ويستشهد إقبال في هذا السياق بالآية الكريمة:

قوله تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا) «سورة الأعراف ، الآية 179».

مشيرا إلى أن جميع المصادر يجب أن تعمل معا لإدراك الحقيقة، وأن المعرفة الحقيقية تتطلب توازن الحواس والعقل والبصيرة، وهو ما يعكس رؤية إقبال الشمولية والمتكاملة للمعرفة، والتي تهدف إلى بناء الذات الإنسانية القادرة على فهم الكون وإدراك دورها فيه.

5.3 حرية الذات الإنسانية وحدودها المعرفية:

برزت اجتهادات وفلسفة محمد إقبال لتسلط الضوء على أزمة الحرية في واقع المسلمين، خاصة في ظل انهيار إمبراطورية المسلمين في الهند، وما صاحب ذلك من الجمود الفكري والضغط الحضاري والثقافي الغربي على العالم الإسلامي، وقد رأى إقبال أن قضية الحرية تتجاوز الأبعاد السياسية لتصل إلى نطاق أوسع يتعلق بحرية الإنسان كذات فاعلة ومسؤولة.

كان إقبال يرى أن للعبودية ضحاياها، وهو ما يستلزم أن تكون للحرية ضحاياها أيضا، فشغل باله قضية الرق الروحي باعتباره المدخل الأساسي لغياب الحرية الحقيقية، وقد اعتبر نزول الإنسان إلى الأرض بداية تشكل الذات الحرة، حيث جسّد هبوط آدم الفعل الإنساني في الاختيار، مؤسسا بذلك لفكرة حرية الإرادة التي تمثل الركيزة الأساسية لفهم الإنسان في التاريخ والفلسفة.

واستنادا إلى هذا المفهوم، عمل إقبال على تحرير الحرية من قيود السلطة الدينية والسياسية، ليصل إلى جوهر الحرية كقيمة فلسفية واعتقادية، مؤكدا أن تحرير الإنسان داخليا يمكنه من تحقيق ذاته وبناء المجتمع، وقد شدد على أهمية حرية الاختيار في صياغة الفعل الأخلاقي، موضحا أن الخير لا يمكن أن يكون قسرا، بل هو خضوع طوعي للمثل الأخلاقي ينبع من إرادة الذات الحرة: "عمل الخير لا يمكن أن يكون قسرا: بل هو خضوع عن طواعية للمثل الأخلاقي، خضوعا ينشأ عن تعاون الذات الحرة المختارة عن رغبة ورضى، والكائن الذي قدرت عليه حركاته كلها كما قدرت حركة الآلة لا يقدر على فعل الخير، وعلى هذا فإن الحرية شرط في عمل الخير" (إقبال، 1956، ص99).

وفي مسألة الاختيار مقابل الإجبار، يوضح إقبال أن الله تعالى منح الإنسان حرية واسعة لإظهار إمكانياته وتحديد أعماله وإرادته، فالقضاء والقدر لا يأتي من خارج النفس أو الأشياء، بل يعمل ضمن حدود الإمكانيات والاستعدادات التي وهبها الله للإنسان، مؤثرا ضمن الزمان والمكان، ومن هذا المنظور، تصبح الحرية شرطا أساسيا لصقل الذات واكتساب المعارف وتوظيفها في فهم العالم ومواجهة تحدياته المتجددة، بما يتوافق مع مسؤولية الإنسان كمكلف وعامل وعارف، وهو دليل على قدرته وإرادته الحرة.

4. خاتمة:

يتجلى مفهوم التكامل المعرفي في فهم محمد إقبال للذات الإنسانية من خلال عدة محاور أساسية:

- فهم الذات في ضوء الإسلام والنقد الغربي: انطلق إقبال في تحليل الذات الإنسانية من إدراك جوهر روح الإسلام، مع فهم عميق للفكر الغربي والحضارة الغربية وانزلاقاتها المادية، فقد اتسم بالنقد البناء، فلم يكن مقلدا ولا منبها، بل دعا إلى الاجتهاد والتفكير المستقل، وقد مكّنته هذه الثنائية من تشخيص حالة العالم الإسلامي

المنفصل عن ذاته وواقعه، ومن ثم اقتراح تصور يقوم على إعادة بناء الذات الإنسانية من خلال ربط الإنسان بالقرآن الكريم وبالكون.

- تنوع وثرأ المرجعية الفكرية: لقد تميز إقبال بانفتاحه على مصادر معرفية متعددة، جمع فيها بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية وثقافة الهند الشرقية، ليصبح نموذجاً حقيقياً للتكامل المعرفي، فقد وظف الدين والعلم والفلسفة والشعر والنقد في مشروعه الحضاري، ساعياً لتحقيق التوازن بين الجانب المادي والروحي للإنسان، مع التأكيد على أبعاده الجسمية والنفسية والعقلية والوجدانية، سواء على المستوى الفردي أو الاجتماعي.

وفي الأخير من الضروري اعتماد مقارنة محمد إقبال في تجديد الفكر الإسلامي، واعتبارها نموذجاً للتواصل المعرفي والتراكم الفكري القادر على إحداث التغيير في الواقع الإسلامي، إن تبني هذه المنهجية يمثل مساهمة جادة في إخراج العالم الإسلامي من حالة الغياب الحضاري التي يعانيها، وتمكينه من المشاركة الفاعلة في الحضارة الإنسانية.

5. قائمة المراجع:

- عبد الحميد، أبو سليمان (1989). قضية المنهجية في الفكر الإسلامي. المعهد العالمي للفكر الإسلامي: د.ب.
- موران، إدغار (2002). تربية المستقبل. المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل. ترجمة عزيز لزرقي ومنير الحجوجي. ط 1. دار توبقال للنشر: الدار البيضاء
- زكي، الميلاء (2015). محمد إقبال. تجديد الفكر الديني في الإسلام. مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي: بيروت.
- أحمد دار، شكيل (2021). فلسفة الذاتية ومعرفة الذات في شعر إقبال. مؤسسة دراسات وأبحاث: د.ب.
- طه جابر، العلواني (1995). إسلامية المعرفة. حقيقتها، مفهومها، النشأة والتطور. المعهد العالي للفكر الانساني: القاهرة.
- مكرم، عبد العال (1982). الفكر الإسلامي بين العقل والوحي. دار الشروق: القاهرة.
- عبد الوهاب، المسيري (2013). العلمانية والحداثة والعولمة. ط 1. دار الفكر: دمشق.
- عمار، قاسمي (2017). مفهوم التكامل المعرفي وآليات اشتغاله. مجلة مقاربات فلسفية. المجلد 2. العدد 1 (1-22). جامعة عبد الحميد ابن باديس. كلية العلوم الانسانية والاجتماعية: الجزائر.
- <https://asjp.cerist.dz/en/article/33526>
- مصطفى، قطب (2001). التكامل بين الفكر المفاصدي ومناهج البحث. مجلة تفكر. مجلد 3. عدد 1، (171-185): الجزائر.
- <https://ddl.ae/book/8627928>
- محمد، إقبال (1956). ديوان الأسرار والرموز. ترجمة عبد الوهاب عزام. دار المعارف: مصر.
- محمد إقبال (1975). رسالة الخلود. ترجمة محمد السعيد جمال الدين. مطابع سجل العرب: القاهرة.
- محمد، مختار الشنقيطي (2006). خيرة العقول المسلمة في القرن العشرين. الشبكة العربية للأبحاث والنشر: لبنان.
- محمد، مستقيم (2018). رحلة مفهوم من العلم الى الثقافة. د. ب.
- حسن، ملكاوي (2010). مفاهيم في التكامل المعرفي. الفكر الإسلامي المعاصر. المجلد 15. العدد 60، (25-34) الجزائر.
- <https://citj.org/index.php/citj/article/view/2641/2163>
- نجيب، الكلاني (1959). إقبال الشاعر الثائر. الشركة العربية للطباعة والنشر، ط 1. د.ب.
- هابرماس، يورغن (1995). القول الفلسفي للحداثة. ترجمة فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة: دمشق.